

يتمتع يوماً بالسعادة السياسية والاجتماعية التي هي منتهى آمال كل أمة حية في هذا الوجود.

مرسينيا

٧

في الساعة الرابعة بعد الظهر أقنعت بنا من الإسكندرية الباخرة ايكواتور (خط الاستواء) إحدى بواخر شركة الميساجري مارتييم الفرنسية فبنغنا ثغر مرسينيا أكبر موانئ فرنسا عنى البحر المتوسط واغيط والمانش في اليوم السادس الساعة الخامسة بعد الظهر ولم نر في طريقنا شيئاً يتحقق الذكر سوى بعض سواحل إيطاليا وفرنسا وقد تجنت عن بعد وكان نظرننا مختلف إليها بقدر بعدنا أو قربنا منها ودام البحر رهواً حتى إذا خرجنا من مضيق مينا أصبحنا وأصبحت سفينتنا عنى كبرها وطولها وعرضها ألغوية العواصف والتيار يتقاذفنا من كل مكان حتى لم يبق راكب في درجات السفينة الأربع إلا وقد أخذه الدوار أو كاد ولم نملك حواسنا إلا عند بنوغنا ساحل السلامة.

وقوة هذه الباخرة ٢٩٨٧ حصاناً ومحمولها ٣٨٤٨ طناً وتقطع في الساعة اثني عشر ميلاً وهي إحدى بواخر الشركة التي تغدو وتروح بين موانئ البحر الأبيض والبحر الأسود والبحر الأحمر وبحر الأدرياتيك ولهذا الشركة التي جعلت رأس مالها خمسة وأربعين مليون فرنك تسع عشرة باخرة من مثل هذه خصت سيرها بالبحرين الأولين في لأغلب. ومن موانئنا التي تقف عنىها بواخر الميساجري مارتييم خانيا وسلانيك والأستانة وجناق قلعة وأزمير ومدانيا وفاتي ولارنكا ومرسين والإسكندرونة واللاذقية وطرابنيس الشام وبيروت وبافا وحيفا ورودس والإسكندرية وطرابنيس الغرب وحصون وطربزون وبور سعيد

والسويس ولولا أمثال هذه البواخر الفرنسية والنموية والروسية والإيطالية والانكليزية والألمانية والرومانية لما بقيت لنا تجارة تصدر من بلادنا وترد إليها ولتعذر التنقل إلا في السواحل عنى ظهور الجمال والبغال والحمر أو في المركبات وبعض القطارات القنينة التي تربط أجزاء مملكنا بعضها بعض.

ولشركة المساجري أيضاً إثنان وعشرون باخرة تمخر العباب إلى الهند الصينية وتوابعها وخمس باواخر لخط الكوشئين وست باواخر لخط أستراليا وخط كيلونيا الجديدة وخمس باواخر في المحيط الأطلنطىكى (الظلمات) وسبع اختصت بالبحر المحيط الهندي وذلك ما عدا السفن الصغرى التي جعلتها في بعض الموانى الكبرى. وأشغال الشركة متوسطة مع أن حكومة فرنسا تدفع إليها إعانة مالية كل سنة لقاء نقلها البريد بين الشرق والغرب وخدمة الجمهورية فيما ينزمها.

ويقول الذين سافروا مرات بين بلادنا وبلاد الغرب أن البواخر الألمانية والانكليزية والطينية تفوق بانتظامها وحسن خدمتها البواخر الفرنسية وأن الراكب يجد راحته في تلك أكثر من هذه مع أن الأجور واحدة ولذلك اضطرت هذه الشركة وغيرها إلى تخفيض الأجور في الصيف إلى نحو النصف لركاب الدرجة الأولى والثانية والثالثة وأخذت تحم خمسين في المئة لكل شخص ثالث كان مع شخصين يدفعان القصة المقررة فإذا كانوا أربعة فأكثر تحم لنوابع فيما بعده خمسة وسبعين في المئة ولذلك يسهل السفر في الصيف لاعتدال أجوره.

ومن السهيلات التي قامت بها هذه الشركة أن اتفقت مع شركات البواخر الانكليزية والأميركية وشركات الكوك الحديدية عنى أن تنقل الركاب إلى الموانى التي تختلف إليها

بواخرها وتنتك الشركات تقنهم عنى بواخرها بحيث يطوفون العالم ويجتازون من نصف الكرة الغربية إلى النصف الشرقي والأجرة في ذلك معتدلة فيسلك الراكب إن أحب أحد الطرق التي يختارها في قطع البحور والبرور فالطريق الأولى عن موالي الصين واليابان وكندا ماراً بفانكوفر وهو يكنف في الدرجة الأولى ٣٢٨٨ فرنكاً والطريق الثانية أستراليا وفانكوفر ويكنف في الدرجة الأولى أيضاً ٣٥٧٥ والطريق الثالثة إلى أستراليا فضيق توريس فاليابان ففانكوفر وأجرها ٤٢٥٧ في الدرجة الأولى والطريق الرابعة عن طريق الصين واليابان وسان فرانسيسكو وتكنف ٣٢٨٨ فرنكاً والطريق الخامسة إلى أستراليا ومضيق توريس واليابان وسان فرانسيسكو وتكنف ٤٢٥٧ فرنكاً في الأولى فركب الراكب من مرسينا إل هونغ كونغ عنى بواخر شركة المساجري عن طريق السويس وجمبوتي أو عدن وكولومبو وسنغافورة وسايغون ومن هونغ كونغ إلى شنغاي إلى كوبي فيو كوهاما عنى بواخر الشركة أو عنى بواخر شركة الباسيفيك الكنادية بحسب ما يختار الراكب ومن يوكوهاما إلى فانكوفر عنى بواخر الشركة الكنادية ومن هنا يركب القطار إلى كينك ومونتريال وهاليفاكس وسان جون أو نيويورك ومن نيويورك إلى ليفربول أو سومتون عنى إحدى البواخر الانكليزية أو الأميركية أو النموية أو من نيويورك إلى الهافر عنى بواخر الترانسلافتيك ومن الهافر بالسكة الحديدية إلى باريز.

هذه هي المسافات التي يقطعها من يريد الطواف حول الأرض ولو قال قائل هذا لأحد أجدادنا الأقدمين وقال له أنني أريد السير نزهة عنى هذه الخطة لنسب إليه الجنون وقال إن ذلك لن يكون ولكن إذا عرف سر الأسفار في هذه الأعصار يقول سبحان من سخر لنا قطع البحار بالبخر يفعل ما يشاء ويختار.

وبعد فتم يتسع لي الوقت لأدرس جميع معالم المدينة في مرسينا لأني لم أصرف فيها إلا ثلاثة أيام قضيت أكثرها في الراحة ومن عناء السفر الذي طال عينا إحدى عشرة ساعة زيادة على المعتاد لما صادفته الباخرة في طريقها من الأنواء ولطارئ طراً على آلتها في عرض البحر فأصنحتها ولولا ذلك لقطعت باخرتنا المسافة بين الإسكندرية ومرسينا في خمسة أيام بنيا لها ولا تقف قرب اليابسة. ومن البواخر الانكليزية ما يقطع المسافة بين بور سعيد ومرسينا في أربعة أيام وهذه البواخر خاصة بالبريد الانكليزي تنقله من اوستراليا والهند إلى الجزائر البريطانية في خمسة وثلاثين يوماً لا تكاد تستريح في طريقها إلا بقدر ما تحمل زاداً ووقوداً وركاباً والمسافة المعتادة بين اوستراليا وانكلترا لا تجتازها الشركات المعتادة في أقل من سبعين يوماً.

قامت مرسينا في منقطع وادي الرون الجميل فكانت جهنة الجمال الفرنسي بما فيها من الجبال والسهول وما أحرزته من مجد قديم وغني حديث وأن محيطها الذي لا تقل مساحته عن مئة كيلومتر مربع لأحلى من العافية في بدن السقيم أو الضارة في حدود الجوارى - كما يقول بديع الزمان - استغفر الله بل كاد يكون أجهل من الحور الذي تقرأوه في عيون المرسينيات الدعج. ولعل جمال العيون في النساء هنا التي فاقت عيون البدويات الرعابيب انتقلت إليهن من أجدادهن العرب فقد قال ميشنه المؤرخ أن أصل سكان مضائق الرون محتلط كثيراً ففيه العنصر السنّي واليوناني والعربي وحنيط من الطليان والغالب أن سكان جنوبي أوروبا يوصف نساؤهم بدعج العون وسواد الشعور كما يوصف الشماليات بزرقه العيون وشقرة الشعور.

وإلى اليوم يكثر في مرسينا الغرباء ولا سيما الطليان ففيها ٥٥٠ ألفاً من السكان خمسهم من الطليان ويدهم كثير من الصناعات والمعامل وهم عشر الأجانب في فرنسا وكان في مقاطعة مرسينا سنة ١٩٠٦: ٧٦٦٥٠٠ ساكن منهم ١٢٣٥٠٠ أجنب وفيها ٧١٨ مدرسة وفي مقاطعتها ٧١٧ كيلومتراً من الخطوط الحديدية و١٦٣ كيلومتراً من الترم و ٢٨٤ من الطرق الأهلية و ٣٦٨٣ كيلومتراً من طرق العجلات الموصنة بين أقاليمها.

وأهم صناعاتها عمل الأقمشة وتحضير الأطعمة والمأكولات وصنع القرميد خل عنك تجارتها الهائلة وزراعتها التي لا تختلف في الرقي عن زراعة عامة البلاد الفرنسية وفيها دور صناعة للأساطيل والبواخر التجارية ولا سيما دار صناعة الميساجري ماريتيم.

قال من كتبوا عن مرسينا من المؤرخين أن تاريخها من أقدم التواريخ وهي أول ميناء بحرية لفرنسا يرد عهد إنشائها إلى القرن السادس قبل المسيح وفي مقاطعتها اليوم ٤٩ ألف منزل منقسمة بين ألفي شارع وطريق ومعظم آثارها ومصانعها حديثة النشأة من عهد السلالة المنكية الثانية ومن أحسن متهزاتها الكورنيش الذي انتهى سنة ١٨٦٣ وكان عدد السفن التي دخلت مرفأها البالغ مطحده ٣٠٠ هكتار سنة ١٩٠٧-١٦٣٣٠ وعدد الركاب ٥٥٠ ألفاً وقدروا ما يدخل إليها ويخرج منها في اليوم بسبعة وأربعين باخرة وبارجة وناهيك بد من عدد.

ويطبع فيها وينشر ١٤٦ جريدة ومجنته. وجريدة التي مارسينيه (المرسيني الصغير) أوسعها انتشاراً تطبع ١٨٠ ألفاً كل يوم وهو حجم الماتين والايكودي باري كما يطبع التي باريزيان (الباريزي الصغير) الذي يصدر في باريز مليوناً ومائتي ألف نسخة في اليوم

والثاني أكثر جرائد فرنسا انتشاراً. فكان لهذه الأسماء الصغيرة من حسن التوفيق ما لا يخالف الأعمال التي تبدأ بالألقاب الضخمة والأسماء الفخيمة.

زرت إدارة البقي مارسنيه فرأيت النظام مستحكماً في كل ما يتعلق بها وهي اليوم في السنة الثالثة والأربعين من عمرها وأقدم منها بل أقدم جرائد مرسينيا السيمافوردي مارسيل أنشئت سنة ١٨٢٧ وهي من الجرائد الجدية المعيرة إلا أنها أقل انتشاراً. وهذه الجريدة تباع في مقاطعة الرون وما إليها مثلاً فنو فرضنا أن ما يطبع من جرائد مرسينيا ومجالاتها يبلغ كل يوم مئوي نسخة لأصابع كل فرد في مقاطعتها جريدتان ونصف عنى أقل تعديل هذا عدا الجرائد الباريزية وغيرها التي ترد عنى مرسينيا وتباع في شوارعها بالألوف أيضاً.

ومن الأسف العظيم أننا لو أحصينا عدد ما يصدر من جميع الجرائد واخالات العربية والتركية والفارسية في البلاد المصرية والعثمانية والإيرانية لا يبلغ بكميته قدر ما تطبع كل يوم جريدة البقي مارسنيه إحدى جرائد ولايات فرنسا. وعنى هذه النسبة فس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيين وسجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ولا سينا في الأمور العقبية.

ليون

٨

ماذا يصف القلم من مدينة الفرنسيين وكل فرع من فروعها المدهشة لو تعاورته الأقلام الكثيرة وتوفرت على البحث فيه العقول الكبيرة لما كانت إلا إلى جانب القصور. نعم لو جاء في عصرنا الرحالة ابن حوقل وشاهد مدينة فرنسا فقط لحوقل واسترجع وقال هذه